كلمة الأستاذ الدكتور هزوان الوز – وزير التربية

سليمانُ العيسىٰ

شاعر البعث والعروبة

في حارة بساتين العاصي من قرية النعيرية غرب أنطاكية عام ١٩٢١ كانت شهقة الحياة الأولى، ودفقة النور المدفَّأ بشمس اللواء السليب تداعب المقلتين، وفي دمشق كانت خفقة القلب الأخيرة.

وبين الشهقة والخفقة عاش سليمان العيسى الهمّ والحلم، همّ أمَّة تنوشها ضواري العاديات في كلّ مكان وعلى مرّ الأزمان، وحلم الأُباة بأمة عربيّة واحدة موحّدة من المحيط إلى الخليج.

تحت شجرة التوت التي تظلل باحة الدار كان الشيخ أحمد العيسى يزقّ ابنه المعرفة والشعر وآيات الذكر الحكيم كما تزق العصافير خرافها، ولا أدري أكان الشيخ يتوقع أن وليده سيصبح شاعر الهمّ والحلم شاعرَ الطفولة وشاعر البعث العربي؟ وتحت تلك الشجرة كان الشاعر على موعد مع جرحٍ تقاسمه أبناء اللواء السليب بنصلِ غدرٍ تواطأ على إنفاذِه في جسد سورية الفرنسيون وسلاطين الحريم،وصرختَ من وجع الجرح:

«اكتبوا عنّي بأنّي كنت طفلاً عربيًّا

ملأ الدنيا صراخا

حين جذّوا رأس أمه

سلخوه عنوة عن صدر أمّه»

ويبرد وجع الجرح قليلاً، ويصحو الوجع العميق والهمّ فتقول «ويُقتطع اللواء مسقط رأسنا الأخضر من جسد سورية عام ١٩٣٩، ونُشرد نحن الصغار تحت كلّ كوكب، نحمل هويتنا العربية، ونواجه قدرنا أيًّا كان الثمن».

ويصبح اللواء جرحاً وحلماً ودونه ثوارٌ ما بلغوا العشر، فمنهم من استُشهد ومنهم من سعى وما بدّلوا تبديلا.

ويتناثر أبناء اللواء دمًا يبحث عن قلب في أحناء الوطن، ويكبر اللواء ويكبر الحلم وتكبر القضية، وتتطاول قامة شاعر العروبة في نفس سليمان العيسى فيقول:

«ومنذ ذلك الحين فتحت عيني على حلم عربي كان محور حياتي وشعري، وبقيت مُصرا على هذا الحلم الذي دارت حوله حياتي وشعري».

الطفل الذي رأى نفسه يُقتلع من تحت شجرة التوت التي كان يكتب تحتها أولى قصائده أصبح ابنَ وطنٍ مجروحٍ في شماله وجنوبه، وطنٍ يعجن تربة الأرض بأجساد أبنائه لتعيش بنبض قلوبهم ويتنفسوا برئتها، هل كنت يا شاعر البعث على عهدٍ مع محمود درويش لترحلا عن الدنيا بتاريخ واحد؟

أنت ابن أرضٍ سُلخت وحمل أبناؤها هويتهم ليواجهوا قدرهم، وهو ابن أرضٍ اغتُصبت فحمل إخوته الصغار حجراً ليواجهوا قدرهم.

آمنتَ بأن قدرنا نحن أبناءَ الأرضِ التي نشرت الأبجدية وحضنت ثقافة الله وتخلقت بها، أن نواجه أبناء الشياطين ممن لمّا تصلهم ثقافة الله ولمّا يتخلقوا بها، آمنتَ بالحرية والرسالة الخالدة، وحلمتَ بالوحدة العربية ورايتها حامية لك ولأطفالك وأطفال العرب، وضامنةً بقاءهم ووجودهم المهدد في كل لحظة.

يا شاعر البعث كنت تُبعث حيًّا مع كلّ بعث عربي، فعندما تحققت الوحدة العربية بين مصر وسورية أعلنتَ:

منـذ يـومين قـد وُجـدْتُ، فعمـري يــومَ أعلنــتِ مولــدي اليعربيــا

ورأيتَ عبد الناصـر نبيًّا أسمر يجدد الدنيا

حملتَ العربَ والعروبة منذ أوّل يوم غادرت فيه اللواءَ مع رفـاق الـدرب والحلـم، مع الرفاق الذين تقاسمت معهم أيامًا من الحياة وعمرًا من النضال في غرفة مـن السـبكي بدمشق، مع أستاذ الجيل زكي الأرسوزي.

وقد تكون وفّيت الأستاذ حقّه في قولك عنه:

الجيــــل سَــــلْهُ...إنه صــــيحةٌ أطلقْتَهــا أنــت... فكــانَ الجــوابْ

والبعــثُ... ســلْني... إنــه خفقــةٌ عنــك اســتفاقَتْ في دمــاءِ الشــبابْ

وفي تلك الغرفة كان الحلم يكبر ويكبر، والإيمان بالعمل يقوى ويزداد صلابة، لقد كانت تلك الغرفة أشبه بمفاعل عربي ثوري، وقودُه الوحدة والحرية والاشتراكية، وهدفه ومبتغاه.

أمــــــة عربيــــــة واحــــــدة ذات رســــــــالة خالــــــــدة

ويزدادُ إيمانُ الشاعرِ بالأمة العربية ومعناها ورسالتها، وتترسخ رؤاه بأن سوريةَ أرضُه وصنعاءَ كذلك، وبلادَ العَرَبِ كلَّها بلادُه وبلادُ كل عربي، ورسالتها ساميةٌ للأبد، وكان قلب الشاعر يفيض تيهًا وعزًّا كلّما تذكر:

أمــــة العُــــربِ لــــنْ تمــــوتَ وإنّي أتحــدّاكَ باسْــمِها يــا فنــاءُ

أنّى لهذه الأمة أن تموت وفيها رجال أُنُفٌ يصنعون فجر الحرية من غياهب السجون.

وهــزني في حديــد الســجن قهقهــةٌ مــن الرفــاق عليهــا المــوتُ يــنْحطمُ

وأنّى لهذه الأمة أن تموت وهي إذا كَبَتْ نهضت، وإذا جُرِحت ضمّدت جرحها وثأرت، كبت في حزيران وكان الجرح عميقاً وغائرًا، وهرع الشاعر إلى الأطفال يغني لهم، يحيي فيهم الماضي المجيد ويستنهض كرامة الحاضر، فَصَدَقَ حدْسُه ولم تطلْ كبوة الأمة، ففي تشرين هبّت واستفاقت، وهبّ الأبناء وانهمروا فَرَقَّصوا شيطان الشعر لديك، وانتفض الوجدان فيك ماردًا وقلت:

نـاداهم الـبرقُ فاجتـازوه وانهمـروا عنـد الشـهيدِ تلاقـى اللهُ والبشـر

ولم يكن شاعِرُنا يُهوّمُ في شعره فلقد كان يستهدي بالواقع، لم يكن يتخيل ولكنه كان يستعين بالخيال، كتب في كلّ ما يكتب فيه الشعراء، وإذا كانت العروبة تهمة فهو متهم بها من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه، فلقد قال:

«ولم يكن الشعر – كما ذكرتُ غيرَ مرة – إلا وسيلةً من وسائل الدفاع عن وجودي العربي».

«حملتُ القضية العربية كما تحملُ جلْدَك، ولون عينيك، وتنفسك الطبيعي».

وماذا أقول يا شاعر البعث؟ وعنك يعذب القول ويسمو.

وقبل أن تودع نفسي روحك يا شاعر العرب لك أمانةٌ في عنقي من كلّ أحبابك لتبلغها للعرب الأحياء في عالم الموت والشهادة.

في بلادنا اليومَ ما يعجز الوصف عنه، في بلادي واقعٌ يقلده الخيال، قتلٌ وسفك دمٍ كرمى عيون بني صهيون وسادةِ البيت الأبيضِ، وأحبارِ القَيْنقاع وبني النضير، والكل والغٌ في دمنا باسم الله زُوراً وبهتانًا، وأنت تعرف وأنت القائل:

« أصرت السماء

على أن نتعارف

وأصرت وحوش الغابة

على أن نتذابح ».

في بلادي اليوم إخوة يوسف يكيدون له ويتآمرون عليه ليلقوه في الجبّ، ويوسف أحلاهم ويوسف أكيسهم ويوسف أطهرهم وأنقاهم، يريدون قتلَ يوسفَ ويوسفُ صاحٍ وما أبوه بأعمى،ولكنهم في غيهم وضلالهم سادرون.

شاعرَ البعثِ أيقظ البدوي وقل له: قم إنّ علوج الروم وأحفاد هتلر وقتلةَ الهنود الحمر وهيروشيما وناغازاكي وفيتنام وقتلة الأفغان والعراقيين يضرمون نيرانهم في أعالي

جبال بلادنا، يولمونَ لأحفادِ أبي لهبٍ، وحبلُ حمالةِ الحطبِ يرزمُ الضحايا، عد وتعالَ ريحًا صرصرا أو بردًا وسلامًا، وعرّج في طريقك على نزارٍ وقل لهُ: ميسونُ ما زالت تحِبكَ، انهض بكلّ حَيْلِكَ فالجاهليون الجدد يجرونها من جدائلها ليزنوا بها بمَهرٍ كاذبٍ. ثم سلْ ليلى الأخيلية وميسون البحدليّة وكلَّ العربيات: هل سمعن أن أرحام العربياتِ تؤجّر للعهر باسم الله زورًا وخداعًا؟!! في بلادنا عصاباتُ الجهلِ والظلام تقتل التاريخ، فرأسُ أبي العلاء كان على هامته قبل أن يقطعه الغزاة، والآن أصبح في قلوبنا ثأرا.

قل لهم جميعاً نحن لسنا بخائفين، ففي بلادنا رجال عندما ناداهم البرق في تشرين اجتازوه وانهمروا، واليوم عندما ناداهم الحق جاؤوه من كلّ صوب وحدب، ولم يعد البرق يومض في تشرين فحسب، ولم يعد الأبطال ينهمرون من السماء وحدها،فهم مع العشب الطالع يقومون، مع الماء يتدفقون، من القرآن مع آياته ينزلون، من الأرحام التي دنّسها السفلة يولدون.

وذكّرهم بأنك كتبتَ شعرًا للجماهير العربية، للوطن العربي، للقضية العربية، كتبت قافيةً مقاتلة، وأخرى رقّت حواشيها، كتبت للأصدقاء، والأوطان والأسفار،والقديم والحديث، كتبت للتراب والشجر والأطفال، كتبت في كلِّ ما كتبَ الشعراء، ولكن إذا ما قيض لك أن تكتب ثانيةً فستكون على دين القروي حين قال:

حرام عليّ الهوى وفي وطني صيحة للجهاد

وسنغني معك جميعًا يا شاعر البعث ونجدد العهد الذي قطعته على نفسك وعلى رفاقك إذ قلت:

للمعول الصلدِ عهدٌ في سواعِدنا ألاّ يقرَّ وفي هذا الثرى صنمُ

لن تهدأ معاولُنا يا شاعر البعث حتى نحطِّم الأصنام وصانعيها.

وسيبقى نشيد حماة الديار يهدر عاليًا في ربوع بلادنا.